مفهوم التراث الإسلامى

بقلم الدكتور

عبد الفتاح أحمد الغاوى (*)

تمهيد

التراث فى اللغة :

ورث : الواو والراء والثاء كلمة واحدة هى الورث والميراث وأصله الواو :

وهو أن يكون الشىء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سبب [١]، (ورث) فلان المال : صار إليه ماله بعد موته [٢] .

قال الراغب : الوراثة والإرث : انتقال قنية إليك من غيرك من غير عقد ولا ما يجرى مجرى العقد .

ويقال لكل من حصل له شىء من غير تعب قد ورث [٣] .

ومنه التراث : وهو ما يخلفه الرجل لورثته وأصله : ورث أو وراث ، فأبدلت الواو تاء .

فالتراث والإرث والورث مترادفة .

وقيل الورث والميراث فى المال ، والإرث فى الحسب [٤] .

وقد وردت كلمة (التراث) فى القرآن الكريم بمعنى الميراث ، قال تعالى : ﴿ وتأكلون التراث أكلاً لما ﴾ [٥] أى تأكلوا الميراث .

ووردت فى السنة أيضاً بمعنى الميراث ، قال صلى الله عليه وسلم : ولك رب تراثى» [٦] وقد وردت فى القرآن بمعنى الميراث الدينى والثقافى ، أيضاً قال تعالى : ﴿ يرثنى ويرث من آل يعقوب ﴾ [٧] .

(*) أستاذ الفلسفة المساعد - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

وقال ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [٨] فهو وارثة الاعتقاد والإيمان .

وأطلق سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه كلمة الميراث على التراث العقدى والثقافى، قال للصحابة رضوان الله عليهم : « أنتم هنا وميراث محمد صلى الله عليه وسلم يوزع فى المسجد » [٩] .

ولما انطلقوا إلى المسجد لم يجدوا إلا حلقات الذكر وتلاوة القرآن ، فوضح لهم أبو هريرة رضى الله عنه أن هذا هو ميراث محمد صلى الله عليه وسلم .

التراث فى الاصطلاح :

هو « ما ورثناه عن أبائنا من عقيدة وثقافة وقيم وآداب وفنون وصناعات، وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية » [١٠] .

وتراث العربية يراد به كل مدونات هذه اللغة ومرويات الناطقين بها كاملة أو مبتورة، دون النظر إلى جنسية الكاتب أو الراوى [١١] .

تقول الكاتبة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) : « وحين يذكر التراث يتجه القصد منه غالباً إلى نطاق محدود ، يحصره فى قديم المخطوطات من علوم العربية والإسلام ... » وتتابع قولها « ويخشى أن يرسخ فينا هذا الفهم القاصر المحدود لتراثنا ، فيغيب عنا أول ما يغيب أن تراثنا يستوعب إلى جانب ذلك كله ، ما ترك أسلافنا من ثمار عقولهم فى مختلف فروع المعرفة وميادين العلم ، من طب وعقاقير ونبات ورياضيات وفلك ... إلى آخر هذه العلوم التى لا تكاد تجد من يعنى بتراثها ، أو يحس حاجتنا إلى إعداد خبراء يشاركون علماء العربية والإسلام فى حمل الأمانة الصعبة التى يفرضها علينا وجودنا » [١٢] .

فالتراث هو جذور الأمة ، ومكونات شخصيتها، ومسارها الحيوى عبر الزمان والمكان .. وهو القاعدة والمنطلق وحجر الزاوية ... وهو قدر الأمة ونسيج وجودها الذى لا يمكن لإنسان أن ينكره إلا على مستوى الجدل النظرى ، الذى لا رصيد له فى عالم التجربة الحية والواقع المعاش [١٣] .

فتراث أمتنا تراث خمسة عشر قرنا، يبدأ من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وتدوين المنزل عليه من ربه عز وجل ، ويمتد بامتداد أمتنا الإسلامية .

أولا : محنة التراث الإسلامى :

نظرة سريعة فى المدونات التى تتحدث عن إنتاج هذه الأمة تجعل المرء يقف مذهولا أمام عظمة ما قدمته وأنتجته من المعارف والعلوم التى غيرت مجرى حياة الناس ، ووضعتهم من جديد فى عداد العاقلين المفكرين .

لقد أنتجت هذه الأمة ملايين المخطوطات والمصنفات التى قدمت ومازالت تقدم للفكر الإنسانى أثمن ما يمكن . ولكن أين هذا الإنتاج الضخم والأرقام الخيالية التى تقدمها لنا الكتب التى تتحدث عن إنتاج هذه الأمة من المخطوطات ؟

يقول ول ديورانت : « ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامى إلا جزءاً صغيراً من تراث المسلمين . وليس هذا الجزء الباقى إلا قسماً ضئيلا مما أثمرته قرائحهم ، وليس ما أثبتناه إلا نقطة من تراثهم » (١٤) .

إن أرقام المكتبات فى الإسلام تشهد بما قدمته أمتنا ، من إنتاج ضخم فى المعرفة والعلم والأدب . وإن المرء لتنفرج أساريره وهو يتابع تلك الأرقام الخيالية من الكتب التى امتلأت بها المكتبات الخاصة والعامة فى عالمنا الإسلامى، وما قدمته تلك المكتبات من دور فى بناء الشخصية الإسلامية والحضارة الإنسانية .

نعود إلى سؤالنا : أين هو الإنتاج الذى يحدثنا عنه العلماء ؟ وما مصيره ؟

يقول أحد الباحثين وهو يتحدث عن تلك المكتبات ودورها « فلئن كانت النشوة تملأ نفوسنا، حين نتحدث عن انتشار المكتبات فى العالم الإسلامى ، فى عصور حضارته الزاهرة فإن الأسى ليملأ قلوبنا حين نتذكر مصائر هذه المكتبات ، وما تعرضت له من بوار وحرائق ، لا يمكن أن تقدر خسارة العلم فيها أبداً . لقد أصيبت مكتباتنا بما قضى على ملايين الكتب منها، بحيث فقدها العالم إلى الأبد . وهى من أثمن ما خلفه الفكر الإنسانى فى التاريخ » (١٥) .

وإذا ما أردنا أن نعرف حجم المحنة التى أصابت تراثنا، ليس لنا إلا أن نقوم بمقارنة بسيطة بين ما يذكر من الكتب من تراجم العلماء أو فى فهارس الكتب كفهرست ابن

النديم وما يمكن أن تجده الآن ، فما أكثر العلماء الذين لم يبق لنا شيء من إنتاجهم وما أكثر الذين لم يبق لنا من إنتاجهم إلا القليل اليسير. ويرجع ذلك إلى عاملين رئيسين أحدهما داخلي والآخر خارجي .

أما العامل الداخلي فهو ما اعترى العالم الإسلامي من تفكك وتفتت وإنهاك وانهيار ، وما أصابه من ضروب المحن والثورات والحرائق واستلام الحكام الجهلة زمام الأمور ، وتحكمهم بأموال الناس وأرواحهم وكذلك ما أصاب المسلمين أنفسهم من جمود وضعف وتأخر .

ويتمثل العامل الخارجي في الغزو المغولي والغزو الصليبي، فقد تعرض العالم الإسلامي من القرن الثاني عشر وما بعده لهجمات منظمة مستمرة من الغرب والشرق بقصد تخريبه واجتياح أراضيه [١٦] .

ونستطيع أن نقول : إن تراثنا مر بمحن كثيرة قوية ولولا كثرته وغزارة إنتاج أفراده، لقضى عليه .

ومن أشد تلك المحن التي مر بها تراثنا :

- الغزو الصليبي .
- الغزو المغولي .
- الصراع المذهبي .
- الجهل بقيمة التراث .

وسنتناول فيما يلي عرض هذه المحن بشيئ من التفصيل :

(١) الغزو الصليبي :

لقد تعرض العالم الإسلامي منذ نهاية القرن الهجري الخامس لهجمات شرسة من الغرب الصليبي ، أراد بها استئصال جذور الأمة الإسلامية ودرس وجودها . فشن حملات باسم الحروب الصليبية . دمرت الكثير من معالم هذه الأمة ، فقتلت ونهبت وسبت ، وأحرقت الكثير من المكتبات التي كانت تضم فوق رفوفها أرقى إنتاج يخدم الإنسانية ويأخذ بمصير العالم إلى الخير والسعادة .

وقد تركزت تلك الهجمات والحملات على بلاد الشام ، فأقامت الإمارات والمماليك .. وتخاذل المسلمون حيناً من الدهر ، إلا أن عناية الله هيأت لهم من قاموا بالمسئولية وكسروا شوكة هؤلاء .

وبما أن حديثنا هنا عن تأثير هذا الغزو على المكتبات والكتب والتراث الإسلامى. لهذا لن نتطرق إلى غيره ، وسنقتصر الحديث على ما أتلفته تلك الأيادى الآثمة، وما فعلته بتراثنا العظيم .

يقول الأستاذ محمد كرد على : « ومن أهم النكبات التى أصيبت بها الكتب نكبة طرابلس لما فتحها الصليبيون. وإحراق صنجيل أحد أمرائهم كتب دار العلم فيها ، وأخذ الصليبيون بعض ما طالت أيديهم إليه من دفاترها وكتب الخاصة فى بيوتهم ، واختلفت الروايات فى عدد المجلدات التى كانت فى خزانة بنى عمار أو دار حكمتهم فى طرابلس وعلى أصح الروايات أنها ما كانت ، تقل عن مائة ألف مجلد » [١٧] .

وذكر ابن الأثير فى الكامل أن الصليبيين ملكوا طرابلس بالسيف ، ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال وغنموا من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يحصى [١٨] .

ومما لا شك فيه أن نسبة خطيرة من تلك الكتب تضمنت من حقائق تراثنا وإنتاج أسلافنا ، ما يمكننا القول أنها ضاعت وإلى الأبد ، وربما كان فيها ما يساعد أمتنا فى هذا العصر على النهوض مرة أخرى . ومن الخزائن التى دمرت خزانة أسامة بن منقذ أحد أصحاب قلعة شيزر « فإنها كانت تضم أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة أرسل بها بعد أن أخذ عهداً من الصليبيين من دمياط إلى عكا فنهبت ونهب معها ثلاثون ألف دينار » [١٩] .

إن نكبة الغزو الصليبى أ فقدتنا أعز وأعظم ما نملك من المكتبات والكتب التى كانت فى طرابلس وغزة وعسقلان وحلب وغيرها .

هذا بعض ما فعلته فى البلاد التى حكمتها فترة من الزمن حتى يسر الله للأمة وهيأ لها من أبنائها من أخرج الغزاة واسترد من أيديهم أكثر ما أخذوه . أما فى البلاد التى استمرت تحت أيديهم وما زالوا يحكمونها إلى يومنا هذا مثل الأندلس فقد أحرقوا ما فيها من كتب دون تفريق بين غث وسمين - حرقوا كتب الأدب والعلوم والمصاحف النادرة .

« وما فعله الأسبان فى القرن السادس عشر الميلادى فى مكتبة جامع الزيتونة فى تونس لا يقل عن الذى فعلوه فى الأندلس حيث انتهبت الكتب وداستها خيولهم الغازية، وما فعله المستعمر الفرنسى من إحراق مكتبة الجزائر لا تقل عنهما » [٢٠] .

(٢) الغزو المغولى :

لم يكد المسلمون يستريحون من حملات الصليبين الحاقدين . . حتى خرج إليهم من الشرق أخطر سيل بشرى عرفة التاريخ . خرج يهلك الحرث والنسل حتى تخيل للبعض أن سد يأجوج ومأجوج قد انهار . خرج يكتسح البلاد والعباد بأعظم مصيبة .

ومهما وصف الإنسان وحشية هذه الحادثة لن يستطيع أن يصف جزء من فظاعتها. يقول ابن الأثير عند حديثه عن أحداث عام (٦١٧ هـ) لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟

فيا ليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت قبل حدوثها ، وكنت نسياً منسياً ! ... هذا الفعل [٢١] يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها . . . فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها، لكن صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . ويتابع ابن الأثير وصف الحادثة بشكل يجعل المنتمى إلى أمة الإسلام يقف شامخاً معتزاً بقوة أجداده وصمودهم أمام مثل هذه الهجمات التى لو أتت على أمم أخرى لأبادت وجودها . ومحت آثارها . يقول : « ولقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم ، منها هؤلاء التتر قبحهم الله ، أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها » [٢٢] .

وليس مجال بحثنا وصف هذه الحوادث بتفاصيلها ، ومن أراد أن يقف على حقد هؤلاء فليرجع إلى كتب التاريخ ، ليعرف مدى المصائب التى مرت على أمتنا ومازالت والحمد لله عزيزة بدينها قوية بعقيدتها وتراثها، ولم تضعف تلك المصائب من عزيمتها وأداء رسالتها .

ولنقف الآن على بعض ما فعلوه بالكتب ودورها .

تقول الدكتورة عائشة (بنت الشاطئ) : « ونتظر إلى المشرق ، حيث كيان الدولة مثخناً بالجراح ، من أثر الفتن المذهبية والتمزق الشعوبى ، وانتشار القوى . فنلمح مع مطلع القرن السابع نذر الخطر تأتى هذه المرة مما وراء النهرين . . فى أقصى المشرق . ثم لا تلبث جيوش (هولاكو) أن تندفع كإعصار مارد ، فتهاوت حصون الشرق الإسلامى حصناً أثر حصن ، واجتاح الإعصار خراسان وفارس كلها ، ودمر فيما دمر مالا يحصى من صروحنا العلمية وكنوز ثقافتنا ومعالم حضارتنا ، فى بخارى ونيسابور والرى وأصفهان ، ثم اكتسح العراق ، فسقطت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية سنة (٦٥٦هـ) وبدأ الأعاجم عندئذ فى الهلاك . و تصدت الجبهة الموحدة فى مصر والشام لهم ، وانكسرت أمواج التتار الزاحفة الهادرة عند عين جالوت ، وعكف رجال الإسلام يفتشون بين الأطلال عن ذخائر التراث فى بيت الحكمة والمدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية وغيرها من دور الكتب العامرة ، وصروح العلم الشامخة ، فإذا النار قد أكلت منها ما أكلت حتى شبعت ، فقذف بالباقى إلى النهر. يقال أن الكتب سدت مجرى دجلة ، وجاز الناس عليها ما بين شطيه كأنها جسر معقود » (٢٣) .

لقد كان الموت والدمار والخراب يحل بكل ما كان يطئونه ، لقد دخلوا المدن وهى عامرة بالعلم ودواوينه ، وخرجوا تاركينها أنقاضاً بلا حياة بعد قتل الرجال وسبى النساء، وتدمير دور العلم والعبادة .

لقد دمروا بغداد، وكان مصير المكتبات الحرق كما ذكرنا يقول القلقشندى فى صبح الأعشى وهو يصف المكتبات فى العالم الإسلامى ، ما انتهى إليه أمرها :

« فقد كان للخلفاء والملوك فى القديم مزيد اهتمام وكمال اعتناء ، حتى حصلوا منها على العدد الضخم ، وحصلوا على الخزائن الجليلة ، ويقال : إن أعظم خزائن الكتب فى الإسلام ثلاث خزائن : إحداهما خزانة الخلفاء العباسيين فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة ولا يقوم عليه نافسة ، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد فذهبت خزانة الكتب فيما ذهبت وذهب معالمها وأعفيت آثارها » (٢٤) .

وينقل لنا الأستاذ محمد كرد على أخبار التتر عندما احتلوا بغداد ما يجعلنا مذهولين أمام عظمة أسلافنا وإنتاجهم ، وحقد الحاقدين وأفعالهم . لقد حرقوا كتب العالم

بعد أن شهروا السيف « إن هولاكو بنى بكتب العالم اصطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن ، وقيل : إن ماء دجلة تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه التتر من الكتب والأوراق . وقيل : أنه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة » (٢٥) .

لقد اسودت مياه دجلة أياماً من مداد تراثنا الفكرى، ولكن هذا المداد نقل معه إلى حيث حل جانباً من المعرفة والعلم . وجانب آخر ضاع وإلى الأبد .

وفى الشام فعلوا الأفاعيل بحملاتهم المتكررة ، وكان هذا ثانية المصائب على الكتب فى الشام . يقول محمد كرد على : « والمصيبة الثانية - للكتب - ما حمله منها التتر فى نوبة هولاكو، وما أحرق فى مدارس دمشق وجوامعها من أمهاتها، فقد ذكر المؤرخون أنه امتلأت خزانة الكتب بمراغة بما نهبه هذا الطاغية من الشام والعراق وغيرهما، وقدر ما حمله بأربعمائة ألف مجلد ... ومنها ما حرق فى فتنة غازان سنة (٦٩٩) وفى وقعة تيمور- سابى العذارى (٨٠٣) فإن النار ظلت تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها، فى الفتنة التيمورية ثلاثة أيام ، فذهب فى هذين الحريقين وغيرهما كتب المدرسة الضيائية والمدرسة ا لعادلية وغيرهما من المدارس » (٢٦) .

(٣) الصراع المذهبى :

مسكين هذا التراث لا يكاد ينتهى من محنة ، حتى تستعد أخرى لاستقباله والإجهاز عليه . فما كادت الحروب والموجات والحملات تنتهى ، تاركة خلفها البعض من تراثنا متفرقاً ممزقاً، حتى يستعد لمعارك أخرى لإتلاف ما تبقى . فما فعلته تلك الحروب ، فعلته الخلافات السياسية والمذهبية ، التى عصفت بالأمة الإسلامية .

« لما انكسرت موجات الصليبية على سواحل مصر والشام بفضل الجبهة الموحدة فى قلب المشرق الإسلامى . لم تنج بقايا تراثنا من معارك الصراع المذهبى الذى احتدم ضرامه على ساحة الدولة الكبرى ، فحيثما أتيح لأصحاب مذهب مجال نفوذ وسلطان ألحوا على كتب خصومهم حرقاً وإتلافاً، على ما يسجله تاريخنا السياسى والمذهبى. ومع أن مثل هذا التدمير كان موجهاً بصفة خاصة إلى كتب المذاهب ، إلا أن لهب الحريق لم يكن يميز بينها وبين غيرها، وقد كان الحكام المذهبيون يريحون أنفسهم بإحراق الكتب جملة ، لتعذر فحص الملايين منها ، إلا أن يتاح لهم القليل النادر - مستشار رشيد ينقذ ذخائر التراث التى لا شأن لها بصراع المذاهب » (٢٧) .

لقد كان انتصار فريق على آخر ومذهب على مذهب ، خسارة عامة للكتب ، وكارثة حضارية شاملة .

ففى الخلافة العباسية وفى عصورها المتأخرة ، جرى اضطهاد الكتب وإحراقها بل والتضييق على مؤلفيها . « فقد حدث أن أحد علماء بغداد البارزين فى عهد الخليفة العباسى (الناصر لدين الله) وهو عبد السلام بن عبد القادر أبى صالح بن جنكى دوست الجيلى البغدادى ، المدعو بالركن . اتهم أنه معطل ، وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة فى قواعد هذا الشأن ، وكان عبد السلام هذا قد قرأ علوم الأوائل وأجادها ، واقتنى كتباً كثيرة فى هذا النوع واشتهر بهذا الشأن . فأوقعت الحافظة عليه وعلى كتبه ، فوجد فيها الكثير من علوم القوم وبرزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة وأن تحرق بحضور الجمع الجم فيها ، ففعل ذلك وأحضر لها عبيد الله التيمى البكرى المعروف بابن المارستانية وجعل له منبراً صعد عليه ، وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم ، وكان يخرج الكتب التى له ، كتاباً كتاباً ، فيتكلم عليه ، ويبالغ فى ذمه وذم مصنفه ، ثم يلقيه من يده لمن يلقيه فى النار » [٢٨] .

ويذكر القفطى راوى هذه القصة : « أن الحكيم الإسرائيلى يوسف السبتى أخبره : قال كنت ببغداد يومئذ تاجراً ، وحضرت المحفل وسمعت كلام ابن المارستانية ، وشاهدت فى يده كتاب (الهيئة) لابن الهيثم وهو يشير إلى الدائرة التى مثل بها الفلك وهو يقول :

وهذه هى الداهية الدهماء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء ، وبعد إتمام كلامه خرقها وألقاها فى النار .

قال : استدلك على جهله وتعصبه إذ لم يكن فى الهيئة كفر ، وإنما هى طريق إلى الإيمان ومعرفة قدرة الله عز وجل فيما أحكمه ودبر [٢٩] .

إنها الداهية الدهماء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء ، أن يتحكم مثل هؤلاء فى مصير أمة كتب لها الخلود ، مصيبة كبرى هذا التعصب الأعمى وهى فى نظرى أخطر من المصائب الأولى التى ذكرناها والمتمثلة فى العدوان الخارجى على الأمة إذ ضرر هذه المصيبة أعظم ، وفعلها أقبح . ولنأتى إلى مكتبة الخلفاء الفاطميين ونقف على مصيرها ، وما فعل بها نتيجة الجهل بالدين والتعصب المذموم . اعتدى عليها الغوغاء من المماليك

الأتراك ، فأشعلوا فيها النار ، واقتسم العبيد جلود كتبها فاتخذوها نعالاً يلبسونها ، وألقى منها عدد كبير فى النيل وحمل بعضها إلى سائر الأقطار وبقى منها ما سفت عليه الرياح فصار تلالاً تعرف بتلال الكتب [٣٠] .

لقد لقيت فى هذا الصراع المذهبى كل دور الكتب التى بمصر الفاطمية مصيرها بعد سقوطهم ، فمكتبة (العزيز بالله) آلت إلى ابنه (الحاكم بأمر الله) ، وشيد هو إلى جانبها دار العلم ، وجمع لها نفائس المخطوطات ، حتى كان زمن المستنصر بن الظاهر (٤٢٧ ط) وتمرد الجنود الأتراك مطالبين بزيادة مرتباتهم ، « ولما عجز السلطان عن إجابة مطالبهم أرغموه على بيع كنوز قصره التى جمع آباؤه وأجداده منذ تأسيس دولتهم الفاطمية ، وسطا الجنود على ذخائر الكتب فى مكتبة العزيز ودار العلم والجامع الأزهر ، فحملوا منها ما حملوا وباعوه فى الأسواق بأبخس الأثمان ، واتخذت جلودها الثمينة نعالاً [٣١] .

وبفضل من الله بيعت بعض الكتب وجمعت مرة أخرى وتوزعت هذه الذخائر على المكتبات الخاصة ، وبعض الزوايا والمساجد الأهلية ، حتى سقطت الدولة الفاطمية (٥٦٧ هـ) وأعيد فتح دار العلم ومكتبة الأزهر ، لكن نفراً من رجال الدين أشاروا على (السلطان صلاح الدين) بإتلاف تراث الفاطميين من الكتب ، لأن فيها ضرراً على الإسلام ، فاستجاب لهم صلاح الدين وأمر بإتلافها [٣٢] .

وفى حلب نجد مكتبة (خزانة الصوفية) تلك المكتبة العظيمة تنهب ولا يبقى منها إلا القليل فى أيام عاشوراء ، بسبب الفتنة التى قامت بين السنة والشيعة . مصيبة أثر مصيبة . أيام يجب أن يتفرغ فيها للعبادة ، والقوم يتفرغون فيها للقضاء على كنوز العلم ومضامين العبادة .

وهناك فى المغرب العربى شمال أفريقية تلقى دور الكتب مصير مثيلاتها فى المشرق فقد « حوربت كتب الإمام الغزالى - حجة الإسلام - فيه وأمر أمراء المرابطين الذين تلقبوا باسم أمراء المسلمين بإحراقها ، وتقدموا بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها ، واستمر الحال على هذا المنوال زمن الموحدين وذلك أنهم اضطهدوا علم المذهب وخاصة فى أيام مؤسس السلالة الموحدية محمد بن تومرت فى القرن

الخامس يقول صاحب المعجب : وفى أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر بإحراق كتب المذهب ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد ، وقد شهدت ذلك وأنا بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار [٣٣] إكراه على الفكر ، قهر وإجباره ، فى الوقت الذى يقول فيه تبارك وتعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ [٣٤] .

لقد نهانا الله عز وجل عن الإكراه فى الدين ، فكيف الإكراه فى الفكرة ، أمر يدعو الإنسان إلى الشك ، قوم قدموا للعالم أرقى الحضارات وأنفع العلوم ، يخرج من بينهم من يكره أخاه على اعتناق فكره ، ويأمر بإتلاف حصيلة الفذة فى ميادين العلم والمعرفة [٣٥]

(٤) الجهل بقيمة التراث :

وهذه نقطة سوداء وصفحة قاتمة فى تاريخنا العريق ، نقف أمامها فى حيرة وأسف ونود ألا تمر بنا ... ولكنها حقيقة قبلنا ذلك أو رفضنا ، أنها حقيقة مخجلة أن يقف المرء أمام جهل أفراد من أمته عبثوا بحصيلة عقول عملت وأنتجت لتخرجها من الظلمات إلى النور .

تلك الذخائر التى بقيت لنا بعد تلك المحن المتتالية على تراثنا الإسلامى العريق والتى قضت على الملايين من المخطوطات ، أتى أبناء الأمة ليقضوا على الباقى منها جهلاً بقيمتها واستهانة بمضمونها .

تلك الذخائر بقيت مودعة فى المساجد والزوايا بضاعة رخيصة لا تساوى وزنها ورقاً عند خدام المساجد الموكول إليهم أمرها ، ورحم الله أجدادنا وقفوا ما جمعوا من كنوز تراثنا الروحى والعلمى على خدمة العلم والدين وأودعوها بيوت الله ، وهم يحسبون أنها فى دور العبادة بمأمن من الضياع ولم يدروا أن سوف يأتى علينا وعليها حين من الدهر يؤتمن فيه خدام المساجد والزوايا على هذه الكنوز دون رقيب فيبيعونها بالكوم لباعة الترمس والفول كى يغلفوا فيها بضائعهم قبل أن تظهر الصحف والمجلات وتؤدى هذه المهمة ، وقد حدث شاهد عيان من أساتذتنا أنه رأى بعينه خادم مسجد المؤيد يملأ السلال بنفائس المخطوطات ، ويبيعها لمن يطلبها بثمن بخس وربما قبل بعض القوت عوضاً عن الثمن [٣٦] .

ذكر (الكونت دى طرازى) أن خادما يدعى (ابن السيمانى) عين فى منتصف القرن التاسع عشر خازنا لثلاث مكتبات كبرى فى مساجد مصر وجعل له ديوان الأوقاف

راتباً شهرياً قدرة خمسة وعشرون قرشاً . وكان الرجل يستعين على العيش ببيع قصب السكر، ويضع بجانب بضاعته من القصب أكواماً من مخطوطات المكتبات التلاث يبذلها لمن يدفع له القرش والقرشين [٣٧] . أمانة ومحافظة عليها . الرجل يريد الحياة والعيش ولو دفع ثمنها نتاج عصور متتالية من عقول هذه الأمة .

لقد جهل قومنا قيمة تراثهم . وازداد هذا الجهل أبان العصر التركى فما كانوا فى هذا العصر إلا ركاماً لا قيمة له يشغل المكان دون الفائدة حتى جاء سلاطين العثمان وحملوا تلك البقايا إلى مركز خلافتهم وعاصمة دولتهم لا حرصاً عليها ولا انتفاعاً بها (وإنما حملوه إرضاء لشهوة التملك والاقتناء، واستكمالاً لمظهرية السلطان ، وكان أقصى ما قدروه من قيمة لها هو إرضاء الوجدان الدينى لجماهير الشعوب المتدينة ... فراح السلاطين يبنون المساجد التى تحمل أسماءهم ويكدسون فيها الذخائر من تراث العربية والإسلام . حيث بقيت هناك أكواماً تملأ السراديب والدهاليز دون أن تعرف لها قيمة أو يرجى منها نفع [٣٨] .

رحمهم الله جميعاً رغم عملهم هذا نحن مدينون لهم ، على الأقل لأنهم حفظوا تلك المخطوطات والذخائر من الحرق وبيع الترمس فيه . لقد ضمنوها لنا، ولعل أكثر ما نجده الآن من تراثنا محفوظ هناك وفى الدول الغربية التى حملت هى الأخرى على عاتقها حفظ تراثنا رغم نواياهم السيئة .

وفى تلك المرحلة بدأ نهب التراث الإسلامى - ونقله إلى مكتبات أوربا ... بدأ النهب من جميع البلاد الإسلامية ولم يكن مقتصراً على وطن دون أخر أو مكتبة دون أخرى ففى الشام وفى العراق والحجاز ، وفى « اليمن ومصر » الخ البلاد الإسلامية .

ويقول الأستاذ محمد كرد على (ومن المصائب التى أصيبت بها الشام أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولندا ، وروسيا ، أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً من تراثنا تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين) .

وكان قومنا ولا سيما من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع ، بلغ بهم الجهل والزهد فى الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب ، فخانوا

الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم) ويتم الأستاذ حديثه ، بمثال على الذى ذكر ، يقول « وحدثنى الثقة أن أحد سماسرة الكتب فى القرن الماضى كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم فى دمشق ، ويختلف إلى متولى خزائن الكتب فى المدارس والجوامع ، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة، وبقى هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام ثم رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها » (٣٩) .

وتاجر إيطالى عاش فى اليمن كان يستبدل بضاعته البخسة بالمخطوطات اليمنية القديمة فاجتمع له من ذلك عدة آلاف من المخطوطات أهداها فيما بعد لمكتبة « لامبروزيانا » الإيطالية (٤٠) .

ولهذا نجد النسخة الأصلية للعديد من كتب تراثنا فى مكتبات أوربا فى الفاتيكان والأديرة والمتاحف . ذهبت كلها فى الفترة المظلمة التى قطعت الصلة بين الأسلاف العظام والحفدة العجزة .

وعندما تأكد الغرب من تفوقه على العالم الإسلامى بدأت تلك المخطوطات تظهر للوجود بتحقيق المستشرقين .

وأخيراً أصبحنا نتعرف على تراث أجدادنا من الكتب الصادرة فى الغرب الذى لم يستطع حتى الآن فهم ما تتضمنه تلك الذخائر فهماً صحيحا .

مر معنا فى الصفحات السابقة أرقام إحصاءات تكاد كون خيالية لولا يقيننا بغزارة إنتاج أسلافنا فى ميادين العلم والمعرفة ، وتسخيرهم أغلب أوقاتهم للعلم قراءة وكتابة ، تفصيلاً وتجديداً لعلوم من سبقهم فى تلك الميادين .

فأنتجوا بذلك أعظم المكتبات التى ضمت ، أنفس المخطوطات والذخائر العلمية .

ورأينا ما انتهى إليه مصير إنتاجهم الفكرى والعقائدى بسبب المحن العظيمة والمتتالية التى هدفت إلى القضاء على تلك الآثار، للحيلولة بين إفادة أبناء الأمة منها.

ومع هذا نجا القليل النادر منها ، وهى ما نراها اليوم مبعثرة متفرقة فى مكتبات العالم الإسلامى وغير الإسلامى . وما زالت تلك الآثار كما كانت تضم بين دفاتها كثيراً من العلوم النافعة . إنها تضم ثمار عقول من عرف عصرهم بالعصور الذهبية .

لقد استفاد الغرب من تلك الآثار فتقدم وعجزنا نحن .. أو لم نرد الاستفادة منها والآن ما الذى ينبغى أن يكون عليه موقفنا من التراث .

ثانيا : الموقف من التراث :

نستطيع أن نحدد مواقف ثلاثة تجاه التراث :

أولها : موقف القبول المطلق ويتبناه من يزعم أن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئاً ولذلك تراهم يقبلون على التراث غثه وثمينه ليتجاوزوا شعورهم بالنقص أمام الحضارة الغربية والمادية .

ويضرب مالك بن نبى مثالاً رائعاً يجسد حقيقة هؤلاء فيقول :(أننا عندما نتحدث إلى فقير لا يجد ما يسد به الرمق اليوم ، عن الثروة الطائلة التى كانت لآبائه وأجداده ، إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل فكره مؤقتاً وضميره عن الشعور بها . أننا قطعاً لا نشفيها .. فكذلك لا نشفى أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضية [٤١] .

هؤلاء يريدون أن يحولوا تاريخنا وفكرنا وتراثنا إلى ضريح يطوفون به ويذرفون الدمع الكاذب عليه ، يتمنون العودة هم إليه ، لا عودته هو إليهم يرفضون أن يتفهموا هذا التراث ، على نحو يخدم قضايانا المعاصرة ، مكتفين بالانتشاء بخمر الأسلاف [٤٢] .

نعم إن الالتجاء إلى التراث ، والاستفادة منه رد فعل طبيعى لحماية الحالة النفسية للأمة من الانهيار والتمزق . والافتخار بالآباء والأجداد ودورهم الحضارى وإسهاماتهم وإنتاجاتهم المبدعة فى جميع مجالات الحضارة والمعرفة والعلوم ، درع حصين لنا ، يدفع جميع السهام النافذة والتيارات الكاسحة القادمة من البلاد الغربية .

ولكن ليس معناه أن نرتمى بكسل فى أمجاد الماضى ، ونرفض الانتماء إلى العصر الذى نعيش فيه (إن هذا يعنى أن نحول التراث إلى سلاح نقتل به أنفسنا بدل أن نشهره فى وجه أعدائنا [٤٣] .

فمهما تكن عظمة هذا التراث وشموخه ، فلا شك أن قرونا من الظلام قد سادت العالم الإسلامى ، وفرضت تلك القرون آثارها على كل شئ .

فالباحث عن الجوهر لابد أن ينفض أولا أكوام الغبار ... وإن الذين يدعون أنهم سدنة هذا التراث وحفظته ولهم وحدهم حق تفسيره ، ليسوا أفضل من حفراء الآثار جهلاً به ، وعجزوا عن فهمه فضلا عن تفسيره ، وأن معظمهم لا يعرفون من التراث أكوام التراب التى تجمعت طوال قرون التخلف فحجبت جوهره ، وإن كانت قد صانت هذا الجوهر فى نفس الوقت أن تشوهه أيدى العاجزين والمتخلفين (٤٤) .

ولهذا نجد أجيالاً من أمتنا تخدرت باستغراقها فى مراجعة التراث غثه وثمينة ، حلوه ومره ، وبذلت جهودها لإحيائه ، لا لأجل الفائدة منه بل لأجل العيش فيه مخمورا معزولا عن العصر ومحتوياته . إنها حاولت الهرب من الحاضر فهربت بعودتها إلى الماضى والوقوف عنده .

وثانيها : موقف الرفض المطلق بحجة أن تراثنا متخلف رجعى أو أنه ساذج سطحى أو أنه سلبى ذاتى أو أنه كتب فى زمن غير زمننا فلا يمكن الاستفادة منه أو غير ذلك من الحجج التى يوردها هؤلاء ، والتى يريدون معها أن يطبقوا نظرية « فرويد » على التراث وأن التراث بمثابة الأب ، ونحن نعلم والكلام لهم منذ « فرويد » أن الابن لا يستطيع أن يكتسب حريته ويحقق شخصيته إلا إذا قتل أباه ، فعلى الإنسان العربى أن يميت تراث الماضى فى صورة الأب .

ولكن نسى هؤلاء أن الابن يستفيد من خبرة أبيه ويستطيع أن يحقق شخصيته وحريته على وجه أفضل وأعقل مع وجود أبيه ، وأن القيم الإنسانية واحدة وإن اختلفت صيغ التعبير بحكم التقدم التكنولوجى وأن الكثيرين من علماء الغرب شهدوا بأن كثيرا من ثقافة الغرب وحضارته مستمد من حضارة الإسلام وثقافته ، يقول «غوستاف لوبون» لم يكد العرب يتمنون فتح أسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها فاستطاعوا فى أقل من قرن أن يحيوا ميت الأرضين ويعمروا خرب المدن ويقيموا أفخم المبانى ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى ثم يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجماعات التى ظلت وحدها ملجأ للثقافة فى أوربا زمناً طويلاً (٤٥) .

وأخيراً فإن أى مذهب من مذاهب الفكر والسياسة فى عصرنا هذا يبذل طاقات كبيرة للمحافظة على التراث والاستفادة منه سواء فى ذلك يذهبون مذهب اليمين أو مذهب اليسار (٤٦) .

ثالثها : موقف الاصطفاء من التراث :

القبول المطلق يعنى الإفراط ، والرفض المطلق يعنى التفريط . أمة وسط مادام الذى نحن بصدده إنتاج بشرى لم تكتب له العصمة من الخطأ . فلا إفراط ولا تفريط . اتجاه يقف بين الاتجاهين . يمثل تيارا انتقائيا يسعى للتوفيق بين قيم التراث والحضارات المعاصرة . يقترب مرة من أصحاب القبول ومرة من أصحاب الرفض بمعناه الشمولى . أصحاب الموقفين السابقين تمسكوا بموقفهم لعدم استيعابهم القضية، لقد تصوروا أن الأمر إما أصالة وإما معاصرة وظنوا أن لا طريق إلا الطريقان السابقان . والحق أن لا معاصرة دون أصالة ولا أصالة دون معاصرة .

نعود إلى التراث لا بهدف إعادة الماضى، فالماضى لا يعود . . نعود إليه لاستلهام قيمه الحية ومثله الخالدة لكى نصوغ على شاكلته وبما تثيره فينا من قيم ومبادئ وبما تثيره من اعتزاز وإيمان . نصوغ مستقبلنا ونقضى على الواقع التعيس . فلن نستطيع الخروج من هذا الوا قع إلا إذا أدركنا أننا أحفاد من سادوا العالم ومنحوا الإنسانية أرقى الحضارات .

نعود إلى الماضى لا للوقوف على أمجاده والاستغراق فى نشوة الفخر والاعتزاز فهذا قد ينقلب إلى معوق لنا . فإذا ما تجاوز هذا الافتخار والاعتزاز حده انقلب إلى ضده أو ضيع الاستفادة منه ، ولكن نعود إليه كما قلت لاستلهام قيمه الحية ومثله الخالدة، لننطلق بالأ مة من حيث انتهت إليه ذلك الماضى الذى أعطانا كل ميراثه وتجاربه .

إن الجوانب الإيجابية فى تراثنا تضئ لنا الحاضر فى الوقت الذى تعطى الجوانب السلبية فيه العبرة والعظة .

إن موقفنا من تراثنا يجب أن يكون كموقف الابن البار مما يخلفه له أبوه المؤمن . واجب الابن البار هنا أن يكون مقدراً متعاطفا مما تركه له الأب المؤمن . مهما كانت قيمة هذا الموروث ، وطبيعى أن يكون من مخلفات هذا الأب ما يكون صالحاً قوياً يمكن الانتفاع به ، وأن يكون من مخلفاته ما هو بال غير صالح للانتفاع به ، ومهما كانت قيمة هذا الموروث فإنه جزء من بقايا هذا الأب المؤمن ومعطياته . وعلى الابن البار بأبيه أن يعطى هذا الموروث احترامه وأن يتعاطف معه ليبقى ذكر أبيه حياً فى ذاك الموروث القديم.

بعد هذا فإننا ندعو إلى إحياء التراث لا كله فكما أن فى التراث اثاراً مليئة بالخرافات والأخبار المدسوسة كذلك فيه ما صدر عن أصحاب العقول النيرة والأذواق السليمة الذى يعد مفخرة من مفاخر هذه الأمة .

تراثنا ضخم يضم الغث والسمين . وليس لنا إلا الاختيار منه ، واختيار المرء قطعة من عقله . علينا أن نقدم لأجيالنا ما يمجد العقل ويقدمه ويعلى من قيمته وقدره . علينا أن نفتش بين تراثنا هذا الضخم ما يمنحنا التقدم واللحاق بركب الحضارة فى الوقت الذى نقدم فيه إلى جانبه لأجيالنا ما يجعلهم محافظين على قيمهم ومبادئهم وعقائدهم .

فالانتقاء [٤٧] من التراث أمر لا بد منه . ولن يقدمنا الإقبال عليه والإفراط فى تقديسه ولا الإعراض والتخلى عنه .

نأخذ من الماضى الروح والجوهر ونضيفه إلى الحاضر فنتقدم واثقين مطمئنين « والقيمة تتولد من التفاعل بين الذات المدركة والشئ المدرك » فقيمة التراث فى التفاعل معه . ولا يتم هذا التفاعل إلا إذا أمكن للماضى أن يصير حاضراً ومستقبلاً ، ولا يتوفر هذا إلا إذا أمكن ربط التراث بالمعاصرة ، ولا يتم هذا الربط إلا بالانتقاء والإضافة والحذف وبهذا يصبح التراث كما يقول زكى نجيب محمود « هو ما تصنعه أنت لأن التراث مثل الصيدلية الحافلة بأصناف الأدوية وما عليك إلا أن تأخذ صنف الدواء الذى يناسبك ويناسب عائلتك » [٤٨] .

ثالثا : أهمية إحياء التراث :

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» وهى تتحدث عن إحياء التراث: « والدول الطارئة المحدثة هى وحدها التى يحق لها أن تستهين بقيمة التراث ، وتزعم أنه أكفان موتى يفسد ريحها فى العصر ، تحكمها فى هذا الموقف عقدة النقص إذ يعوزها ماضى بين التاريخ يعطيها تراثه » .

أما الشعوب العريقة فهيهات أن تعى ذاتها دون إدراك واع لمقومات أصالتها التى حققت وجودها على مسار تاريخها الطويل ، بل لن يصح وجودها المعاصر ما لم يقم على أساس من خصائصها الذاتية والمادية والمعنوية التى تميز شخصيتها وتعطيها طابع الأصالة وسمات العراقة [٤٩] .

إن فى إحياء التراث إشعار للجيل بقيمته وفائدته ، إنه يبعث الأمل والثقة بالنفس، ويحث على مواصلة مسيرة البحث العلمى الجاد .

وبالإضافة إلى هذا ففى إحياء التراث « إخلاص للسلف بالمحافظة على آثارهم الحضارية لا باعتبارها رمادا ميتا ، ولكن باعتبارها لهبا حيا » .

إن النهر حين يجرى نحو البحر ، فإنما يعبر عن إخلاصه الحقيقى لمنبعه [٥٠] .

وفى إحياء هذا التراث حجة على من ينكر دور أمتنا العظيم فى بناء العلم والمعرفة والحضارة ، إنه يضع بين أيدينا ما نثبت به للأمم جميعا دور أسلافنا فى بناء الحضارة .

يقول هاملتون جب :

« باستطاعة العرب أن يفاخروا غيرهم من الأمم بما فى أيديهم من جوامع الكلم التى تحمل سمو الفكر وأمارات الفتوة والمروءة ومالا مثيل له [٥١]

١ - فهرسة التراث وتصويره :

وأول عمل يتطلبه هذا التراث هو :

فهرسته الفهرسة التى تضع بين يد الباحث مظان وجود تراثه ، الفهرسة التى تتضمن كل ما يتعلق بالخطوط من ذكر اسم الكتاب واسم المؤلف كاملاً وفاتحة المخطوط وخاتمته ، عدد ورقاته وأسطره ، وقياس صفحاته .نوع الخط والحبر . اسم الناسخ وتاريخ النسخ - نوع الجلد - مصدر الخطوط ... الخ . من المعلومات التى تجعل الباحث على بينة بكل ما يتعلق بالمخطوط الذى سيقبل على إحيائه وإخراجه إلى النور ونفض الغبار المتراكم عنه وبدون هذه الفهارس لا يستطيع الباحث أن يضع يده على تراثه وإحياء النافع منه فكثير من المكتبات لم تنشر فهارسها بعد ، يقول هلال ناجى أن أغلب مكتبات تونس مثل مكتبة العبدلية والأحمدية والعطارين والقيروان والتى تضم حوالى « ٢٥ » ألف مخطوطة لم تنشر سوى أربعة أجزاء من الفهارس تناولت قسماً من مخطوطات العبدلية [٥٢] .

والمكتبات الخاصة والموجودة بكثرة لم تصدر لها فهارس ولا حاول ممتلكوها تعريف المكتبات العامة بوجودها .

وإلى جانب هذا نجد أن المكتبات التى نشرت فهارس أكثرها نشرتها بلغات غير عربية مثل الروسية والألمانية والإنكليزية والتركية والفارسية الخ ... من اللغات التى يعجز الكثير من الأمة الإسلامية معرفتها والاستفادة من فهارسها .

لهذا فإن الواجب على العلماء والمسئولين وأصحاب الخبرات فى مجال الفهرسة والترجمة العمل الجاد لفهرسة تلك المكتبات وترجمة تلك الفهارس الأجنبية . وعلى المسئولين ملاحقة أصحاب المكتبات الخاصة ووضع فهرست لمخطوطاتهم بل وتصوير تلك المخطوطات ووضعها بين أيدى الباحثين وأصحاب الشأن فى مجال التحقيق والإحياء .

التصوير على أفلام « ميكرو فيلم » ووضعها فى المكتبات وتسخير الإمكانيات للحفاظ على صلاحيتها وجودتها . وبهذه الخطوة المباركة تستطيع الأمة أن تضع يدها على الجرح الذى ظل ينزف فترة طويلة بها تستطيع وضع العلاج المناسب لشفائه (٥٣) .

٢ - تحقيق التراث ونشره :

لكن فهرسة التراث وتصويره لا يقدم الفائدة المرجوة ما لم يتم تحقيق ما يستحق التحقيق منه بطرق علمية منهجية .

(أ) تحقيق نسبة النص إلى من هو منسوب إليه :

وذلك لأنه أصاب عالم الكتب ما أصاب غيره من الوضع والتزوير والدس - فأول عمل يقوم به المحقق هو التأكد من نسبة الكتاب إلى صاحبه . أداء للأمانة العلمية الذى يقتضى نسبة القول إلى صاحبه ، هذا إذا علمنا أن كثيراً من المخطوطات قد نسبت إلى غير أصحابها إما جهلا أو خبثاً وحقداً على الإسلام والمسلمين ، وأسباب ذلك يعود إلى الآتى :

تجارية :

إن بعض الوراقين الذين اتخذوا من هذه المهنة باباً من أبواب العيش والاتجار التجأوا إلى نسبة كتاب ما إلى أحد المشاهير من العلماء وهى ليست لهم ليرفعوا بذلك من قدر الكتاب وليروجوا له . وبذلك يحصلون على أغلى ثمن بالذى نسخوه .

إعجابية :

وصورة ذلك أن يقرأ شخص ما كتاباً من الكتب المنسوخة، فيعجب بمضمونه إعجاباً شديداً يدفعه إلى أن يدون اسمه عليه وينسب الكتاب إلى نفسه بدلاً من أن ينسبه إلى مؤلفه الأصلى .

الترويج لفكرة معينة :

وصور ذلك أن يروج صاحب فكرة لفكرته التى لا يرى لها انتشاراً بنسبة الكتاب الذى تضمن الفكرة إلى أحد المشاهير الذين اطمأن الناس إلى علمهم وصلاحهم فينسب الكتاب إليه وبذلك يتقبله بعض من هم دون المستوى العلمى المقبول .

ومثل هذه يحدث كثيراً من الزنادقة وأصحاب المذاهب الهدامة الذين يحاولون الدس فى الدين ، بدس أمور مغايرة للعقيدة ليشككوا الناس بدينهم وقد ينسبون كتاباً قد دس فيه ما هو مخالف – لأمور الدين إلى أحد المشاهير ليشككوا الناس فيه وفى علمه وذلك لعدم استطاعتهم الدس فى الدين ، مع وجود مثل هؤلاء العلماء الموثقين .

وهذا حدث كثيراً وإليك بعض الشواهد على ذلك .

ذكر شمس الدين السخاوى أن بعض اليهود أظهر كتاباً وأدعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفى شهادة الصحابة رضى الله عنهم، وذكر أن خط على رضى الله عنه فيه وأنه حمل الكتاب فى سنة ٤٤٧ إلى رئيس الرؤساء أبى القاسم على ، وزير القائم ، فعرضه على الحافظ أبى بكر الخطيب ، فتأمله ثم قال : هذا مزور. فقيل له فمن أين لك هذا ؟ قال : فيه شهادة معاوية وهو إنما أسلم عام الفتح ، وفتح خيبر كان فى سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ وهو مات يوم بنى قريظة قبل فتح خيبر بسنتين (٥٤) .

فإحاطة أبو بكر الخطيب بعهد النبوة أتاح له أن يكشف هذا التزوير .

ونقل صاحب الفهرست رواية عن أبى الفرج الأصفهانى يقول : سمعت عماد بن إسحاق « الموصلى » يقول ما ألف أبى هذا الكتاب قط يعنى كتاب الأغانى الكبير ولا رآه والدليل على ذلك أن أكثر أشعاره المنسوبة إنما جمعت لما ذكر معهما من الأخبار وما

يحيى فيها إلى وقتنا هذا ، وإن أكثر نسبة المغنيين خطأ . والذى ألفه أبى من دواوين غنائهم يدل على بطلان هذا الكتاب وإنما وضعه وراق كان لأبى بعد وفاته سوى الرخصة التى هى أول الكتاب فإن أبى ألفها إلا أن أخباره كلها من روايتنا ... وأخبرنى جحظة أنه يعرف الوراق الذى وضعه وكان يسمى سندى بن على ، وحانوته فى طاق الزيل وكان يورق لإسحاق فاتفق هو وشريك له على وضعه (٥٥) .

ومن ذلك نسبه كتاب « المضمون به على غير أهله » فإنه منسوب إلى الإمام الغزالى وهى ليست له .

لأجل هذا فإن هذا التوثيق أمر لابد منه للمحقق وخاصة إذا كان هناك أدنى شك فى نسبة الكتاب .

والذى يساعد المحقق على معرفة ذلك هو أن يكون وثيق الصلة بمن ينكب إليه الأثر وبموضوع الأثر نفسه . إلى جانب دقته العلمية وقوة ملاحظته ... وقد وجدنا إحاطة أبو بكر الخطيب بعصر النبوة وقوة ملاحظته وسرعة البداهة عنده جعلته يكشف خطط أعداء الله .

(ب) تحقيق الكتاب :

إن الذى ينبغى الأخذ به لنجاح هذا التحقيق أمران : ما يتعلق بالمحقق . وما يتعلق بالنص .

ما يتعلق بالمحقق :

فعلى المحقق أن يكون ذو ضمير وأمانة علمية فلا يغير فى النص ولا يبدل فيه ولا يضيف عليه ولا يحذف منه . إلى جانب إلمامه بالموضوع الذى يريد تحقيقه ، عالماً بأساليب التحقيق متمرساً على قراءة المخطوطات .

٢- ما يتعلق بالنص :

والهدف منه أن يجئ الكتاب على الصورة التى تركها عليه مؤلفه ، خالياً من كل تحريف أو تبديل حصل نتيجة جهل الناسخين أو عدم إجادتهم قراءة المخطوط الذى نسخوه عنه أو أى تبديل مقصود ، كظن الناسخ أو المؤلف أخطأ فى قضية معينة فأراد تصحيح ذلك الخطأ فغير وبدل نتيجة ذلك .

وقبل التحقيق للنص على المحقق أن يجتاز عدة مراحل :

- أن يستقصى نسخ المخطوطات فى المكتبات ، ويستحضر صوراً أو نسخاً عنها ، وينكب بعدها على دراستها من جميع النواحى العلمية والشكلية التى قد تعينه على اتخاذ أحدها أصلاً يطابق عليها النسخ الآخر. ويحاول من خلال هذه الدراسة التعرف على تواريخ نسخها إن كانت مجهولة التاريخ وذلك بالاستعانة بنوع الخط والورق ، محاولة التعرف على ناسخها ومستواه الفكرى والعقلى، فقد يكتفى بعض الناسخين برسم الحروف لجهله أو عدم بذله الجهد للتعرف على الغامض من الكلمات . . الخ من المعلومات التى تهمه فى تحقيقه .
- فحص النسخة : وذلك بدراسة نوع ورق المخطوط يتعرف على عمرها الحقيقى فحالة المخطوطة قد تخدع البعض بقدم الخطوط وهى ليست كذلك .

وبدراسة نوع الخط الذى يحدد عصر الخطوط وموطنه فالخطوط تختلف فى بلاد الشام عنها فى بلاد المغرب .

بمحاولة التعرف على الأبواب والفصول التى شملت عليها المخطوط ، ثم التعرف على الناسخ وتاريخ النسخ إن وجد .

ويحاول هنا أيضاً التحقيق فى عنوان الخطوط : فكثير من المخطوطات فقد الصفحة الأولى الذى يضم العنوان وكثير منها زيف عنوانها أو طمس : فعلى المحقق أن يتأكد من عنوان المخطوط ، والذى يعينه على هذا المخطوط نفسه فقد يتطرق المؤلف إلى العنوان أثناء كتابة المخطوطة ويعينها على هذا أيضاً كتب التراجم والمؤلفات التى تذكر المؤلفين ومؤلفاتهم .

تحقيق النص :

وفيه يحاول المحقق التنبيه والتعليق على ما يراه مناسباً . فإن وجد خطأ نبه عليه فى الهامش وبين وجه الصواب ، والأخطاء تحصل حتى من المؤلف فقد يسهو المؤلف أثناء كتابته فيسقط منه غلطاً فى النقط أو الشكل أو تسقط منه كلمة، وقد يخطأ المؤلف فى ذكر أسماء المراجع والمصادر ولهذا يجب التنبيه على ما يراه المحقق خطأ وعلى المحقق أن يتأكد من تحقيق الآيات القرآنية ، ويقارنها بالمصحف الشريف ، فإبقاء النص القرآنى محرفاً فى الخطوط خطأ فاحش ، على المحقق التنبيه - له والتأكد من سلامته .

وعلى المحقق أن يضبط ما ورد فى النص ضبطاً لا يخرجه عن مراد المؤلف وأن يستعين على ذلك بالرجوع إلى مصادر الضبط . فضبط الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأعلام والأشعار والأماكن أمر فى غاية الأهمية .

وعليه أيضاً أن لا يترك الكتاب دون التعليق المفيد ، فكلما وجد نصاً يحتاج إلى تعليق لصعوبته مثلاً فإن عليه أن يبين مراد المؤلف بعبارة مفهومه ، وإذا وجد بعض الإحالات عند المؤلف ، أشار إلى مواطنها فى الخطوط وثبت ذلك فى الهامش . وعليه أيضاً أن يعرف بالأعلام الواردة وبالبلدان والأماكن ، وأن يبين أرقام الآيات وسورها ، ومواطن الأحاديث والأقوال والأشعار والأمثال الخ ... من المعلومات التى تعين القارئ على فهم النص والاستفادة منه .

كان هذا بعض ما يتعلق بالتحقيق ، وقد أفرد علماؤنا فى هذا العلم كتباً خاصة يرجع إليها (٥٦) .

وهنا يجب التنبيه إلى أمر فى غاية الأهمية، وهو أن تراثنا فيه الكثير من الرسائل والمقالات المتناثرة والصغيرة . وكثير من الخطب والأجوبة التى تناولت موضوعات فى غاية الأهمية . يعرض عنها الكثير من المحققين والعاملين فى مجال التحقيق ويستهينون بها ، ويكتفون بإخراج المخطوطات ذوات الحجم الضخم ظناً منهم أن الكتاب إذا ضخم حجمه كثرت فائدته .

والحقيقة أن كثير من تلك الرسائل الصغيرة تحتوى على معارف وعلوم تكاد تخلو المكتبة الإسلامية منها .

وخير وسيلة لتحقيق التراث هو خلق جيل من المحققين الذين يقبلون على التراث فحصاً ودرساً وتوثيقاً . وهذا الجيل يقتضى فيما يذهب إليه الأستاذ هلال ناجى :

١ - جعل مادة التحقيق درساً أساسياً فى الكليات .

٢ - العمل على توسيع معهد المخطوطات العربية ، وجعله معهداً دراسياً متخصصاً فى شئون التحقيق .

٣ - إيجاد عرف جامعى يلزم طلبة الدراسات العليا بتحقيق مخطوط متعلق بموضوع الرسالة التى تقدم بها (٥٧) .

ما تقدم كان ما يتعلق بتحقيق التراث أما ما يتعلق بنشره فإن علينا أن ندرك تماماً أن الفهرسة والتصوير والتحليل لن تؤتى ثمارها كاملة ما لم يتم عرض التراث ونشره بشكل يدفع أبناء الأمة على الإقبال عليه .

وهذا النشر يجب أن يتم بشكل جذاب وسعر معقول وأن يوسع فى دائرة نشره فلا يكون مقتصراً على بلد دون آخر، ولعل من أهم الأسباب التى صدت القارئ المسلم ، وعزوفه عن اقتناء الكتاب الإسلامى هو إخراجه الردئ المشحون بالأخطاء. الذى التجأ إليه دور النشر التجارية فأخرجوها بصورة سقيمة مليئة بالتحريف .

وأخيراً فإن خير وسيلة لنشر الكتاب بين الناس وهو ما يمكن أن تلعبه أجهزة الإعلام من دور فعال فى هذا المجال بحيث تختار كل جهاز إعلامى من كتاب مدرسى ومجلات وإذاعة وتلفاز من يناسب طبيعته فالكتاب يمكن أن تختار من التراث ما يناسب التلاميذ ومستواهم العقلى فيقرر عليهم سيرة السلف وقصصهم ويرشدون إلى مواطن تلك القص فى التراث .

والصحافة يمكن أن تقدم فى كل عدد لها تعريفاً بكتاب من كتب التراث وتقدم ملخصاً له وتشيد بمؤلفه .

والإذاعة يمكنها أن تقدم البرامج التى تستمد مادتها من التراث ومثل ذلك التلفاز والسينما والمسرح .. الخ من مسائل الإعلام .

رابعا : تنسيق الجهود فى إحياء التراث :

والمقصود منه حفظ جهود الأمة من الضياع فى الوقت الذى نحن بحاجة إلى كل جهد لإنجاز مهمة تحقيق وأداء الأمانة الموكلة إلينا .

فحركة التحقيق تعنى أشد ما تعانيه من الفوضى الذى ابتلى به الأمة فى جميع أمورها ، ففى الوقت الذى نجد فيه حاجة الأمة إلى علم من العلوم حاجة ملحة نجد من المحققين من ينصرف إلى إخراج مخطوط لا علاقة له بمتطلبات الأمة فى عصرنا ، بمعنى أننا نفتقد حسن الانتقاء والتذوق السليم .

وفى الوقت نفسه نجد من علمائنا المحققين من يتنافسون فى إخراج كتاب واحد ، وفى الغالب مستواهم متقارب ونسخهم متشابهة . ومن المؤسف أن نرى هذا من الذين وكل إليهم الأخذ بيد الأمة إلى ما فيه خيرها .

فما الحاجة إلى أن يحقق ثلاثة أو أربعة محققين كتاباً واحداً [٥٨] ويترك الكثير من المخطوطات التى تحتاج إلى الخروج .

وبنظرة سريعة فى نشرات « التراث العربى » لا نجد هذا التنازع والتنافس الذى هو فى حقيقته مضيعة للوقت والجهد والمال .

ولا سبيل إلى تنسيق الجهود إلا بالتركيز على الروح العلمية التى يجب أن تسود بين علمائنا ومحققينا ، وأن يأخذ معهد المخطوطات العربية التابعة لجامعة الدول العربية على عاتقه هذا الأمر ، بنشر التوصيات ورصد ما نشر، ونشرها فى نشراتها وتوصية المطابع ودور النشر التجارية بعدم الإقبال على طباعة كتاب نشر وحقق من قبل .

الهوامش والمراجع

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (ورث) .

(٢) المعجم الوسيط مادة (ورث)

(٣) المفردات فى غريب القرآن : أبى القاسم الحسين (الراغب الأصفهانى) .

(٤) لسان العرب مادة (ورث)

(٥) سورة الفجر آية : ١٩ .

(٦) أخرجه الترمذى - كتاب الدعوات ٨٧ .

(٧) سورة مريم آية : ٦ .

(٨) سورة فاطر آية : ٣٢ .

(٩) مجمع الزوائد : الهيثمى : ١ /١٢٣ .

(١٠) التراث والمعاصرة ، أكرم ضياء العمرى ، ص ٢٨ .

(١١) لأن المجتمع الإسلامى لم يكن يضع فروقاً بين الشعوب والأجناس ولم يكن يضع قيوداً على الانتقال بين الأفراد والجماعات ولم يقتصر المعرفة على طائفة دون أخرى أو على علم دون آخر. انظر التراث واجبنا نحوه ، د . كامل سعفان ، ص ٥ .

(١٢) تراثنا بين ماضى وحاضر: د . عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطئ » ، ص ٨ .

(١٣) مواقف إزاء التراث ، د . عماد الدين خليل ، ص ٥ .

(١٤) انظر : صفحات مضيئة من تراث الإسلام ، أنور الجندى ، ص ٢٩ .

(١٥) من روائع حضارتنا : د . مصطفى السباعى ، ص ١٦٧- ١٦٨ .

(١٦) المكتبات فى الإسلام : نشأتها وتطورها ومصادرها : د . محمد ماهر ، ص٢٠٣- ٢٠٤ .

(١٧) خطط الشام : محمد كرد على ٦ / ١٩١ . ويذهب الكثيرون إلى أن ما أتلفه الصليبيون فى طرابلس من الكتب بلغ ثلاثة ملايين مجلد : انظر من روائع حضارتنا ص ١٩ ، ومواقف إزاء التراث ص ٢٨ .

(١٨) الكامل فى التاريخ : ابن الأثير ٩ / ٢٢٠ .

(١٩) الأستاذ / محمد كرد على ، خطط الشام ٦ / ١٩٢ .

(٢٠) أنظر هلال ناجى : حول توثيق الارتباط بالتراث العربى ص ٤ .

(٢١) ولعل الصحيح (الفصل) .

(٢٢) الكامل فى التاريخ ، ابن الأثير ٩ / ٣٢٩ .

(٢٣) تراثنا بين ماضى وحاضر، ص ٣٥-٣٦ .

(٢٤) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء : أبى العباس أحمد بن على القلقشندى ٤٦٦/١.

(٢٥) الإسلام والحضارة العربية ، محمد كرد على ٣٢٣ .

(٢٦) خطط الشام ، محمد كرد على ١٩٢/٦ .

(٢٧) تراثنا بين ماضى وحاضر ، ص ٣٤ .

(٢٨) تاريخ الحكماء ، جمال الدين على بن يوسف القفطى ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢٢٩ .

(٣٠) من روائع حضارتنا ، مصطفى السباعى ، ص ١٦٨ .

(٣١) تراثنا بين ماض وحاضر ص ٣٤ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٣٣) انظر ظهر الإسلام ، أحمد أمين ٣ / ٣٩ .

(٣٤) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٣٥) من ذلك ما فعله السلطان محمود الغزنوى بكتب الصاحب بن عباد حيث أخرج كتب علوم الأوائل وعلم الكلام من مكتبة الصاحب التى كان وقفها على مدينة الرى وأمر بإحراقها ٢١سلاطين يتحكمون فى مصائر البشر «آمنا ورضينا» أما أن يتحكموا فى الفكر والعلوم فتلك هى المصيبة !!

(٣٦) تراثنا بين ماضى وحاضر ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣٨) تراثنا بين ماضى وحاضر ، ص ٣٨ .

(٣٩) خطط الشام ، محمد كرد على ، ج ٦، ص١٩٣ .

(٤٠) حول توثيق الارتباط بالتراث العربى ، هلال ناجى ، ص ٤ .

(٤١) انظر مواقف إزاء التراث ، عماد الدين خليل ، ص ١٩.

(٤٢) يوم كنا خير أمة ، محمد جلال كشك ، ص ٨ .

(٤٣) مواقف إزاء التراث ، ص ١٧ .

(٤٤) يوم كنا خير أمة ، محمد جلال كشك ، ص ٩ .

(٤٥) انظر أهمية التراث العربى ومدى حاجتنا إليه ، عبد الرزاق البصير ، ص ٦ .

(٤٦) نظرة جديدة فى التراث ، د/ محمد عمارة ، ص ٩-١٠ .

(٤٧) الانتقاء من غير القرآن والسنة ، فالتفاعل مع التراث لن يكون واحداً ، فالقرآن والسنة والوحى الإلهى لا يقبل الانتقاء والاختيار ، قال تعالى : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ « البقرة آية ٨٥ » لهذا يجب التفريق بين الإسلام « القرآن والسنة » وبين اجتهاد العلماء المسلمين وآثارهم الذى هو نتاج بشرى قابل للانتقاء والتوظيف .

(٤٨) انظر التراث وواجبنا نحوه ، ص ١٥ .

(٤٩) ارتباط الأديب بالتراث ، د/ بنت الشاطئ ، ص ٨ .

(٥٠) نظرة جديدة فى التراث ، د / محمد عمارة ، ص ٨ .

(٥١) انظر صفحات مضيئة من تراث الإسلام ، ص ٩٣ .

(٥٢) انظر حول توثيق الارتباط بالتراث العربى ، هلال ناجى ، ج ٧ ، ص ٨ .

(٥٣) للتعرف على قواعد هذه الفهرسة يراجع قواعد فهرست المخطوطات العربية « صلاح الدين المنجد وتراثنا بين ماض وحاضر » د / عائشة « بنت الشاطئ » .

(٥٤) الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، شمس السخاوى ، ص ١٠ .

(٥٥) الفهرست لأبن النديم ، ج ١٨ ، ص ٢٠٣ .

(٥٦) يراجع فى هذا « التراث واجبنا نحوه » د / كامل السعفان ، ص ٧٦ - ٩٦ .

(٥٧) انظر توثيق الارتباط بالتراث العربى ، هلال ناجى ، ص ٩ .

(٥٨) مثل ٢ لم نزهة الألباء فى طبقات الأدباء للأنبارى ، نشر الدكتور إبراهيم السامرائى فى بغداد سنة ١٩٦٠ م . ثم نشره محمد أبو الفضل إبراهيم فى القاهرة سنة ١٩٦٧ م ، ومثل ديوان « دبك الجن » نشر فى بغداد ودمشق معاً ... الخ .

- انظر توثيق الارتباط بالتراث العربى ، هلال ناجى ، ص ٧ - ١٣ .